كلمة الدكتور بشر دعبول
في حفل تأبين والده الدكتور موفق دعبول

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وبعد فإنني أستهل حديثي هذا بأن أتقدم باسمي واسم أسرة الدكتور موفق دعبول بخالص الشكر والامتنان لأسرة مجمع اللغة العربية في دمشق ممثلة برئيس المجمع الأستاذ الدكتور مروان المحاسني؛ ولأسرة جامعة دمشق ممثلة برئيسها الأستاذ الدكتور محمد يسار عابدين؛ ولكل محبي وأصدقاء وزملاء الوالد الراحل الذين أكرمونا اليوم بمشاركتهم إيانا تأبين الوالد الدكتور موفق دعبول طيب الله ثراه وأكرم نزله ومأواه.

وبعد فاسمحوا لي؛ أساتذتنا وأهلنا وأحبابنا بأن أستفيد من هذا اللقاء بأن يكون امتداداً لعمل الوالد الراحل ؛وثمرة من ثمرات زرعه وحرثه؛ ولئن كان ثناؤنا عليه قد لا يصل إليه؛ إنّ ثواب علمه الذي يُنتفع به، وأثره الذي يبقى ويمتد، يصل إليه بإذن الله، ويُضاف إلى صحيفة أعماله.

لقد كان الدكتور موفق أستاذاً وعالماً ومفكراً وزوجاً صالحاً ووالداً ومُربِّيًا وأشياء أخرى كثيرة لا يتسع المقام لذكرها جميعاً، ولقد أطنب أساتذتنا الأفاضل في الحديث عن بعض هذه الجوانب فأجادوا وأحسنوا. وسأتحدث معكم إن أذنتم لي عن جانبه الذي يخصني وهو الدكتور موفق الأب المربي الحنون الدافئ .

أشارككم اليوم ثلاث قصص قصيرة، أنعم الله بها علي، إذ حظيت من خلالها بأن أتعرض لحكمة والدي، وعمق تربيته، ولطف مقاربته، التي تركت فيَّ وفي إخوتي، وفي الكثير ممن حولنا أثراً كبيراً عميقاً لا نزال ننعم به حتى اليوم.

القصة الأولى كانت عندما كنت في السادسة من عمري، إذ أردت يوماً أن أستمتع بمتابعة السقوط الحر لقشرة موزة ألقيتها من شرفة منزلنا في الطابق السادس. إلا أن هناك من أفشى سِرِّي، فَنَمَى إلى علم والدي بطريقة ما، أنني فعلت هذه الكبيرة في عُرفه، فما كان منه إلا أن استدعاني وطلب مني بطريقته الهادئة الحانية المحبة أن أنزل ستة طوابق لأصل إلى الشارع وأبحث عن قشرة الموزة، فألتقطها وأرمي بها في سلة المهملات. وللعلم فإن شارعنا لم يكن بتلك الدرجة من النظافة، ولا أدري إن كنت قد التقطت نفس القشرة أم كانت قشرةً من طفل آخر، إلا أنني أعرف جيداً أنني تعلمت درساً عميقاً في المواطنة، جعلني أشعر من يومها أن الوطن هو بيتي الثاني، وأن عليَّ أن أحرص عليه، وعلى صلاحه، كما أحرص على بيتي الداخلي. وبدلاً من أن يولِّد هذا التصرف فِيَّ ردة فعل سلبية تجعلني أنقم على والدي وعلى نظافة شارعنا، فإن لطف مقاربة الوالد، وحنوَّه وحبَّه، كل ذلك جعل هذه المواطنة دَيْناً يسري في عروقي، ولا أدعي في ذلك أي فضل، فالفضل بعد الله يرجع لوالدي، ولأسلوبه التربوي الدافئ المتقدم.

أما القصة الثانية فقد حصلت عندما كنت في الصف السادس الابتدائي، حيث كانت معلمتي واحدة من تلاميذ الوالد في الجامعة، ممن كان يعشق الوالد ويُجلُّه ويُكنُّ له كل المحبة والاحترام..

وكان أن بدر مني تصرف لا يليق بابن الدكتور موفق، فما كان من معلمتي إلا أن قالت لي :"كلُّ وردة تُخلف شوكة "..

ولكم أن تتخيلوا كم أثرَّتْ بي هذه العبارة، كيف لا وأنا الذي لطالما عشقت والدي، ولطالما تأملته وتابعته وسمعته ورافقته وقلدته ولبست ثيابه بل وشممتهُ، وحلمت مراراً بأن أحذو حذوه، وأن أسير على دربه وخطاه، لأبلغ بعضاً مما وصل إليه، وأحقق شيئاً من إنجازاته وأعماله .. أيعقل بعد هذا كله أن أكون الشوكة التي خلفتها الوردة الجميلة الرائعة. ولكم أن تتخيلوا، أحبابنا، الأثر العميق الذي تركته هذه العبارة في نفسيتي الطفولية الهشة، فما كان مني إلا أن أتيت والدي ، وإلى من غيره ألجأ، وأخبرته بما حدث معي، والعبرات تخنق كلماتي ..

ابتسم الوالد وبعد لحظةِ صَمْت، طلب مني أن أُحضر ورقة رسائل، ولقنني كلمات أرسلها لمعلمتي أعتذر فيها عن تصرفي غير اللائق، وأعدها أن أعمل جاهداً لأصبح ثمرة يانعة تخلفها الوردة، بدل أن أكون شوكة في ساق الوردة تَشُوكُ من يقترب منها.

قدمت الرسالة لمعلمتي في اليوم الثاني بخجل، فما كان منها إلا أن قرأتها بسرعة ثم وضعتها بعناية في جيبها، ولمحتُ دمعةً تترقرق من عينها، إذ إنها علمت مباشرة أن هذه الكلمات لم تكن كلماتي، بل كانت كلمات أستاذها الجليل، إلا أن هذا كان كافياً لأن يشفع لي عندها، ولأن يعلمني كيف أتصرف بإيجابية حيال أي موقف سلبي أتعرض له، فأحوله بشكل أو بآخر، إلى فعل إيجابي يشحذ همتي، ويُحسِّن أدائي وأداء من حولي دون أن يؤدي إلى نكوصي أو تراجعي.

والجدير بالذكر أنني زرت معلمتي بعد سنوات من هذه الحادثة وكم أدهشني عندما أخرجت لي رسالتي هذه من جيب دفترها، وكان واضحاً أنها قد قُرئت مئات المرات، ولم يكن يخفى علي أنها لم تكن تقرؤني من خلال سطورها بل كانت تقرأ معلِّمَها وتقرأ الرسالة الإيجابية الخفية التي أرسلها لها، والتي قرأتها خلف أسطر وكلمات رسالتي البريئة.

أما القصة الثالثة فلعلها الأعمق أثراً علي، والأحدث عهداً إذ إنها حصلت قبل سبعة أعوام عندما تعرَّضتُ لمحاولة قتل قرب عيادتي، وكان أن كتب الله لي النجاة ، إلا أنها تركت علي أثراً صحياً بالغاً جعلني أفكر ملياً بمغادرة البلد ولو بشكل مؤقت، لأبتعد عن الخطر، ولألُمَّ شتات نفسي، ولعلي أبدأ بداية جديدة في وطن جديد، كما فعل الكثير من طيور بلادي المهاجرة. وكان أن شجعني الأهل والأحباب بل وضغط علي الكثير منهم، حتى إنني حزمت حقائبي وحجزت تذاكر الطائرة ولم يبق لي سوى أن يقول لي الوالد :" سافر على بركة الله ".

إلا أنه لم يفعل ..عجبت يومها لموقف والدي، وتأملت به كثيراً، ولم أفهمه جيداً، بل إنني طلبت من بعض ممن أثق به، وأعلم أن كلمته مسموعة لدى الوالد أن يُحدِّثه في هذا الشأن، بل وتبرع العديد من أهلنا وأحبابنا بأن يفعلوا ذلك. إلا أنه أصرَّ على موقفه قائلاً: بأنه يمكن لِبِشْر أن يغادر وأنا راضٍ عنه، إلا أنني لن أطلب منه ذلك بل أطلب منه أن يتريث، وإن أصرَّ على المغادرة فليترك أبناءه عُبادة وعبد الرحمن عندي، لِيُتموا تحصليهم العلمي في كنفي وتحت إشرافي. طبعا حسمت أمري، وقررت أن أبقى في دمشق، وأنَى لمن كان له والد يعشقه ويثق به كوالدي أن يخالفه أو أن يحيد عن نصحه وإرشاده. ومرت الأيام وأثبتت لنا الحوادث أن ما اختاره لي الوالد كان هو الصواب .. فرغم كل الصعوبات والمخاطر والمعاناة التي تعرضننا لها،

ويتعرض لها كل من أخذ القرار بأن يبقى في هذا الوطن، فالعبرة والمناط ليس بمقدار رفاهية وسهولة ورغد العيش التي يمكن تحقيقها هنا أو في المغترب، وإنما بمقدار الأثر الإيجابي الذي يمكن للمرء أن يتركه هنا أو هناك، والذي سنحاسب عليه إن عاجلاً أم آجلاً. وأحسب أنه، وأتكلم هنا عن شخصي ولا أعمم، كان يمكن أن أضيع أنا أو أبنائي فيما لو أخذنا قرارنا بالاغتراب، مقتلعين بذلك جذورنا من تربتنا الصالحة ، لنحاول غرسها في تربة جديدة قد تلائمها وقد ترفضها، إلا أن المؤكد أنه سيكون غرساً جديداً وسيحتاج إلى وقت قد يطول قبل أن يبدأ بأن يؤتي ثماره ..

إلى الله أدعو أن يجعل ثواب كل عمل صالح أقوم به أنا وأخي وأخواتي وأبناؤنا وبناتنا واصلاً إلى صحيفة أعمال والدنا الراحل الدكتور موفق دعبول، اللهم اشهد أنه لم يألُ جهداً في تربيتنا ونصحنا وإرشادنا وتوجيهنا، والصبر علينا وعلى همومنا وآلامنا ومشاكلنا وأعبائنا، وأنه كان نعم الأب ونعم المربّي ونعم الصديق ونعم الموجّه، ونعم المعلّم ، ونعم المحبّ .. اللهم إليك أدعو أن تبلغه جنتك وأن تلحِقنا به وذرارينا في الفردوس الأعلى مع النبين و الصديقين والشهداء والصالحين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .